الحيوان المنسي

للاب أنستاس ماري الكرملي

﴿ تمهيد ﴾ — نريد بالحيوان المنسيّ ذلك الحيوان الذي لم يذكره علماؤه في مؤلفاتهم ، أقدمين كانوا أم محدثين ، إما نسياناً ، وإما اهمالاً ، واما جهلاً لحقيقته أو اسمه أو لسبب آخر لا نعرفهُ وربما ذكره بعضهم ذكراً لا يتحصل منهُ فائدة تذكر ، كقولهِ مثلاً : حيوان ، أو طائر ، أو حشرة ، أو سمك ، أو هامّة ، أو نحو هذه الالفاظ العامة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع

وقد عنينا كل العناية للوصول الى نتيجة بيّنة ، لمقابلة الالفاظ بما ورد من جنسها في اللغات الاجنبية ، ان كان هناك ما يشابهها أو يبيّن حقيقتها . وقد اعتمدنا في ذلك كله على معجمنا الكبير المسمى « المساعد » ، وكنا قد ابتدأنا بهِ منذ سنة ١٨٨٣ ، أي منذ نحو من ستين سنة ، ونحن لا نزال نشتغل بهِ ، إذ العمر لا يكفي ، ولو كان عمر نوح

هذا ونحن لا نراعي فيه ترتيباً ، لاننا نعالج الموضوع بموجب ما يحضرنا من اللفظ ، فننتقل من وصف دابة ، الى دويبة ، الى طائر ، الى سمكة ، الى حشرة ، إذ الغاية الاولى والقصوى التحقيق والتدقيق ، لا الترتيب ولا التبويب ، إذ هذه الامور تأتي بعد الجمع والتأليف لا غير . وعليه نبتدىء بحثنا من الطائر الآتي ذكره .

الصرّ والاطيش

﴿ توطئة ﴾ — ذكرنا غير مرة في الصحف والمجلات ان في لغتنا الضادية ، ألفاظاً لا يهتدى الى معرفة حقيقتها إلاّ بشق الانفس . وفي بعض الاحيان ، قد يصرف الباحث أياماً ، بل شهوراً ، لا بل سنين ، ليعرف مؤدّى الحرف الذي يبحث عن معناه ، فلا يرجع إلاّ مورقاً[1] ، أو يعود بما عاد بهِ حنين . وهذه الاوضاع تشمل ما يتعلق بالحيوان ، والطير ، والسمك ، والنبات ، والجماد . فيعرف الشيء الفلاني بقول اللغويين : حيوان ، أو

١ يقال ورق السائل : اذا لم يسعد ، وورق الطالب : لم ينل ، وورق الغازي : لم يغنم

طائر ، أو سمكة ، أو نبات ، أو معدن ، وكل ذلك لا يفيد فائدة تهدي الباحث الى ضالته وربما كان ذلك اللفظ يتعلق بصناعة ، أو فن ، أو علم ، أو عادة ، كان ذلك معروفاً في عصر من العصور ، أو بلد من الديار العربية اللسان ، أو قبيلة من قبائل العرب ، لكنهُ لم يسجّل معناه في العهد الذي كان يعرفهُ الجميع ، فذهب أصحابهُ ، وانقرض من كان يعرف معناه ، فبقينا اليوم كمن كان في سبحات وجه الله

ومن جملة الألفاظ التي كنا نتسقّط معرفتها ، ونتصيّد معانيها في زواياها وخباياها ، ونبذل السعي للوقوف عليها ، ألفاظ جمة في علم الحيوان في مختلف أقسامه ومن جملتها : (الاطيش) و (الصر) ، فكنا نقول : ما هذا الاول ، وما هذا الثاني ؟ وما يقابلهما عند العلماء وأبناء العرب ؟ . أما الآن فنظن أننا قد وجدنا ضالّتنا — على ما يخيل الينا — فجئنا نكاشف بها قراء المقتطف مهدين حقائق العلم الى عشاقه ، ليروا رأيهم ، ويكاشفونا بما يعنّ لهم ، ويفندوا قولنا ، ويصلحوا أودنا . فنقول :

﴿ الأطيش ﴾ — حاولنا أن نعرف رأي اللغويين عند تعريفهم هذا الطائر . واكبر معجم بيدنا هو تاج العروس ، فرأيناهُ يقول في مادة (ط ي ش) ، ما هذا نصه بحروفهِ : الاطيش طائر ، وكأنه لخفتهِ وكثرة اضطرابهِ انتهى — وفي الاوقيانوس ما نقلهُ : الاطيش زنة احمر : اسم طائر . اه — وفي لسان العرب — وهو معجم عربي فارسي ضخم في أربعة مجلدات كبيرة — ما معناه الاطيش : اسم طائر . اه — وفي حياة الحيوان الكبرى للدميري : « الاطيش طائر . قالهُ ابن سيده . اه . وقد تصفحنا أسفاراً عديدة ، فلم نجد فيها أكثر من هذا القدر . وما زاد عليهِ بعضهم هو من مختلقاتهم إذ لا يقوم على أساس قويم . وقد وجدنا نحن ما يوضح الآن معناه ايضاحاً يدفع كل شبهة

﴿ كيف اهتدينا اليهِ سَبَبَهَا ﴾ — طالعنا في كتاب الامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدي ج ١ في ص ١٤٤ س ١٣ هذه العبارة : « ممن يعروا ، وهي دابة بخراسان تسمنُ على التعب والشقاء — فتعجبنا من غرابة هذا الاسم ومن غرابة كتابتهِ بهذه الصورة المعيبة . وكنا قد قرأنا في سابق الأيام ان لهذه الدابة عدة أسماء ، ذكرنا منها اثنين في لغة العرب (٦ : ٢٢٧) وهما القطاسُ والخشقاء ونسينا الاسم الآخر ، الا اننا كنا نتذكر انهُ ثلاثي الاحرف ، وعينه عين معجمة لكنه ذهب عن ذاكرتنا ، وكان الاسم مشهوراً عند العرب في صدر الاسلام ، فقلنا في انفسنا : لا بد من الاهتداء اليه ، اذ هذه أحسن فرصة لاصلاح الخطأ والاهتداء الى الحق . فأخذنا نتصفح حياة الحيوان الكبرى

للدميري في احدى نسخه الخطية الخمس التي عندنا لأننا كنا قد عثرنا عليه في احدى تلك النسخ ، فألفينا في حاشية الصفحة ٩ بجانب كلمة الأطيش هذه العبارة :

« هو طائر يشبه الصر كل الشبه ، ويألف الجماعة من أصحابه ، ويطير دائمات ، ويألف الغياض والغابات ، ويستطيب بزر الكتان ، ويعشش على صغار الأشجار كالجوز ، والكرم ، والرمان ، والعوسج ، وانظائرها ، وهو كثير الطيش ومنه سمه » انتهى . فتركنا الى وقت آخر البحث عن مترادف الخشقاء ، وتابعنا تحقيق الأطيش ، فظهر لنا انه المسمى بالانكليزية Linnet وان الصر هو Canary Bird ، فاصطدنا عصفورين بحجر ، كما يقول بعضهم في أمثالهم . وهذا الصيد نفسه الفيد لم يكن منا قصداً ، بل نتيجة .

٤ — ﴿ تحلية الأطيش ﴾ قال لاروس في معجمه الوسط : الأطيش المتذل (وبلسان العلم Linaria Cannabina مبثوث في اوربة كلها ، اللهم الا في أقصى الشمال ، فانه يرى عوضاً عنه ، نوع مجاور له ، هو الأطيش الأصفر المنقار Linaria flavirostris والأطيش المتذل طائر حسن ، أوبد ، أسمر ، ورأسه وصدره معلمان بأحمر زاه في الذكر ، الا ان هذا اللون يحضر في الطيور الأسرى ، والاناث . هذا والأطايش من آكلة الحبوب خلقة ، وقد انشأ العلماء ردفي جنس لبعض الأنواع مثل الأطيش الشمالي (واسمه العلمي Degiothus linaria وموأواه أقصى شمالي اوربة وأميركة ، وأطيش البلاد المتحدة Leucosticte Tephrocotis اه

وقد أجمع علماء الطير في جميع البلدان على ان غذاء هذا الطير أنواع البزور ولا سيما بزر الكتان ومن ذلك اشتقاق اسمه في لغاتهم Linotte أو Linnet و Linaria الذي معناه الكتاني او آكل بزر الكتان ويعشش على الجفان وصغار الأشجار . والفرنسيون يضربون المثل بطيشه فيقولون فلان أنزق من الأطيش ، وبلسانهم Tête de Linotte

﴿ الصر ﴾ — لم نجد اسم هذا الطائر في القزويني ، ولا في الدميري ، ولا في المخصص ، لكنا وجدناه في القاموس ، وتاج العروس ، وهذا نصهما مدمجاً بعضه ببعض[1] : « الصر » بالكسر (طائر كالعصفور) في قدره ، (أصفر) اللون سمي بصرته . يقال : صر العصفور يصر : اذا صاح . وفي حديث جعفر الصادق : اطلع عليّ بن الحسين وأنا أنتف صرّاً . قيل : هو عصفور بعينه كما ورد التصريح به في رواية أخرى » انتهى — وهي عبارة صاحب النهاية بعينها ، وان لم يصرح الزبيدي بذلك ، اذ هذه عبارة ابن الأثير بنصها :

(١) ما كان بين هلالين هو كلام القاموس . وما كان بلا هلالين هو نص التاج

« وفي حديث جعفر بن محمد : اطلع علي (١) بن الحسين ، وأنا نتف صرا هو عصفور او طائر في قدره ، أصفر اللون سمي بصوته يقال : صر العصفور يصر صريراً : اذا صاح . » اه — فوجود ذكر الصر في الحديث ليس جديداً لانه يعني ان عرب الجاهلية كانت تعرف هذا العصفور

﴿ من أين جاءنا هذا الاسم ؟ ﴾ — رأينا ان الصر يسمى بالفرنسية سرن Serin وكان يسمى في المائة الرابعة عشرة للميلاد سرينا Serena والقسم الاول من الكلمة الفرنسية اي (سر) يشبه سم طائرنا بالعربية اي (صر) ، لكن ليس هذا من ذاك ، ومن أصر على قوله ، فقد أظهر قلة وقوفه على اسرار الضاد . لان (الصر) مأخوذ من حكاية صوته ، كما جاء في تفسير الحديث الذي نقلناه عن النهاية . اذ لهذا الطويئر البديع الحسن ، نغمات عديدة . أما النغمة التي يكررها صباح مساء فهي صرْرْرْرْرْرْ اي صاد مكسورة يتبعها راءات ساكنة يختلف عددها بين العشرة والخمسة عشرة وبالحروف الفرنجية Sirrrrrr . فهو مسمى بحكاية احد أصواته لاغير ، كما سميت طيور كثيرة بحكايات اصواتها كالقلق ، والكوكو ، والصرصر ، والهدهد ، الى أشباهها

﴿ تحلية الصر ﴾ — دلنا نص الحاشية الطريفة لحياة الحيوان الكبرى الخطية : ان الصر يقد الاطيش وانه يشبه الاطيش وهو Linnet بالانكليزية ، وأفادنا ابن الاثير انه يقد العصفور ، اصفر اللون ، فلم يبق شك عندنا في انه المسمى بلسان العلم Serinus وبالانكليزية Canara Bird وبالفرنسية Serin . قال لاروس الوسيط : « الاصرار : طيور رشيقة القوام متوسطات القد ، خضر الالوان ، تتخللها صفرة وسواد ، ويرى الاصفر في السلائل الاليفة ينفتح شيئا فشيئا ، ويهجم على الريش كله ، والصر الشامي Dini Dryospiza مبثوث في سقي بحر الروم ، والصر الكناري D. Canaria أصغر من السابق وهو خاص بجزائر السعادة أي الجزائر الخالدات (اي جزر كناري) ومادبره وهو داجن في اوربة منذ مئات من السنين. أما صر فلسطين D. aurifrons والصر القزم Metopiospiza pusilla فهما من الاناضول

﴿ الخلاصة — زدنا على ما ثبت من اسماء الطير وما يقابلها في اللغات الغربية والعلمية لقطين ولا نظن ان أحداً من محققي العرب الاقدمين او المحدثين سبقنا الى تحقيقهما وتحديد أشباههما وان كان ثمة فمرضنا اليه ، فنود ان نعرف اسمه ، لنذكره بالحسنى ، ونقدم اليه عبارات الشكر والثناء

(١) في الاصل المطبوع : علي بن الحسين وهو خطأ